سيرورة التفكير من الإمكان إلى البرهان:

"رسالة حي بن يقظان لابن طفيل" أنموذجا

سعاد حمَداش*

الملخص:

إنّ القصة في مجملها ابتكار في البناء الفني وبراعة عقلية في معالجة الفكرة، من حيث تفرُّد "حيّ" الباحث عن الحقيقة معتمدا على حواسه وتجاربه وخبراته، متنقلا من الحسيّ إلى العقليّ، ومن العقليّ إلى ما وراء الطبيعة فيصل إلى الحقيقة التي لا تخالف الشريعة، وعليه يتمكّن بفطرته الفائقة من الارتقاء بالمعرفة من الحواس إلى التجربة إلى المعرفة العقلية القائمة على نتائج ومعطيات خبرته في عالم الكون والفساد حتى الخلوص إلى الحكمة الإشرقية. فالمدونة تحمل هاجس البحث عن الحقيقة، والحقيقة علم ومعرفة، **وهي بذلك عمل إنساني متطوّر في سبيل العيش في العالم عبر استعمال الأشياء، فالمعرفة تحمل ألفة الذات في الوجود، وهي عمل إماطة اللثام عن الطبيعة لتحليل الحقيقة كتصوّر للموجود أو كشف للمحجوب، وذلك لا ينفصل عن آليات إنتاجها والحقيقة هي علاقة بين الذات والموضوع من خلال تكوين وسط التفكير، وتشكيل صعيد الفهم وفتح مجال العمل والتواصل، فالمرء يصنع ذاته ويمارس وجوده عبر لعبة التفكير وتوليفات الفهم والتأويل.**

الكلمات المفتاحية:

التفكير، التأويل، الإمكان، البرهان، لحظة التجسيد، ثلاثية بورس، السيميائية

*- باحثة أكاديمية، جامعة المدية- الجزائر.

تمهيد:

إنّ"رسالة حيّ بن يقظان لابن طفيل" مدوّنة خاصة تدعّم مجال الفكر الإنساني، التي تعرض سيرة المعرفة الإنسانية وخصائصها، عبر سيرة صبيّ تنطلق من الواقع المألوف والتقاليد المعرفية من حيث الافتراض الثاني في ولادة "حيّ" من أب وأمّ كانت أختا لملك جزيرة الهند وكان لها قريب يسمّى يقظان فتزوّجها سرا، ثمّ أنّها حملت منه ووضعت طفلا فخشيت غضب أخيها وانتقامه، فجعلت الطفل في تابوت أحكمت زمّه ثمّ ألقته في البحر فاحتملته الأمواج حتى ألقته على ساحل جزيرة "الواقواق" المجاورة، وصادف أن مرّت به ظبية كانت تبحث عن طلاها المفقود، حتّى سمعت بكاء الطفل داخل التابوت فأزاحته وحثّت عليه وأرضعته وحضنته حتى كبُر.

إنّ القصة في مجملها ابتكار في البناء الفني وبراعة عقلية في معالجة الفكرة، من حيث تفرُّد "حيّ" الباحث عن الحقيقة معتمدا على حواسه وتجاربه وخبراته، متنقلا من الحسيّ إلى العقليّ، ومن العقليّ إلى ما وراء الطبيعة فيصل إلى الحقيقة التي لا تخالف الشريعة، وعليه يتمكّن بفطرته الفائقة من الارتقاء بالمعرفة من الحواس إلى التجربة إلى المعرفة العقلية القائمة على نتائج ومعطيات خبرته في عالم الكون والفساد حتى الخلوص إلى الحكمة الإشرقية.

فالمدونة تحمل هاجس البحث عن الحقيقة، والحقيقة علم ومعرفة، وهي بذلك عمل إنساني متطوّر في سبيل العيش في العالم عبر استعمال الأشياء، فالمعرفة تحمل ألفة الذات في الوجود، وهي عمل إماطة اللثام عن الطبيعة لتحليل الحقيقة كتصوّر للموجود أو كشف للمحجوب، وذلك لا ينفصل عن آليات إنتاجها والحقيقة هي علاقة بين الذات والموضوع من خلال تكوين وسط التفكير، وتشكيل صعيد الفهم وفتح مجال العمل والتواصل، فالمرء يصنع ذاته ويمارس وجوده عبر لعبة التفكير وتوليفات الفهم والتأويل.

I-سيرورة الفكر من الإمكان إلى البرهان:

تشكّل حالة الإدراك وإنتاج المعرفة الخاصة بالإنسان واكتشاف عالمه فعلا semiosis سيميوزيسا من حيث الاشتغال الفكري الذي يتوسط عالم العلامات؛ التي تعدّ حافزا فكريا على البحث واستقراء كنه الوجود، وعملية الاستقراء هذه ما يجعل من العلامة عالما مفتوحا، عبر آلية التأويل والفعل الإدراكي الذي يقود الكائن البشري إلى الخروج من ذاته؛ للشروع في رحلة الاكتشاف مع العالم .

كل هذا المسار يدخل في إطار ما يسمى بالتجربة الإنسانية، التي تشتغل بكافة أبعادها وسط زخم العلامات؛ " فالتجربة الإنسانية تجربة كلية، إنها جسم عام يغطيه غلاف سميك من العلامات، يتحدد داخله الإنسان بأفعاله ومعتقداته وشكوكه ويقينه كعلامات، يحيل بعضها على بعض داخل نسق شاسع يوضح نفسه بنفسه، إن هذه التجربة بأشكالها وعمقها وغناها، هي المنطلق لمعرفة كنه العلامة وتحديد مجمل التعريفات والتصنيفات المصاحبة لها." 1قال الفيلسوف والسيميائي" ش.س.بورس"، في أحد مقالاته لعام 1868 للميلاد، المتعلقة ببعض الإمكانيات المطالبة من الإنسان؛ في تحقيق نتائج فكرية تحت معيار الوضوح إنّه: " لا نملك قوة التفكير دون علامات"2 ، هذا مبدأ في حد ذاته يستدعي دينامية الاشتغال الفكري؛ لكون أن الإنسان كائناً يفكر عبر وسيط العلامة، فهو يوجد ويعيش محيطا بالعلامات، وهذا ما يخلق معه سمة الإبهام والغموض كأول رحلة مع الوجود، بعدها يسعى الإنسان إلى عملية التفكير والاشتغال المعرفي لاكتشاف كنه الوجود .

حتى "حي بن يقظان" بطل رسالة "ابن طفيل"، كائن وجد نفسه في وسط مكتنف بالعلامات، وعليه كان تفكيره قائما على العلامات، وعبر آلية الفعل الإدراكي والترابط العلائقي، جعل لنفسه نمطا فكريا لإدراك ذاته وعالم الأشياء ، فكما بينا سابقا اعتمد في تدرّجه المعرفي طريقة علمية تمكنه من تبسيط كنه الأشياء ومدلولاتها، وجعل منها سبيلا لتوضيح واثبات جل تصوراته، وعبر عملية الاشتغال الفكري والترابط العلمي، تمكن من إدراك أثر وجود المظاهر واشتغالها في الحياة.

فكيف أنشأ "حي بن يقظان" نسقه الفكري الخاص؟ وكيف فهم فحوى وجود الأشياء لكونه علامة ؟

هذه بعض الإشكاليات الهادفة لاكتشاف النسق الفكري عند "حي" وبنيته المعرفية، فمن خلالها سنسعى لوصف الفعل الإنساني عامة، والفعل اليقظاني خاصة، من خلال رصد سيميوزيس الفكر اليقظاني وما يصدر عنه من ممارسات.

ومن أجل تحقيق هذا الوصف، استندنا أساسا إلى مقولات الفكر البورسية لكونها مراتب أساسية في الوجود، وبما أن القصة اليقظانية هي رحلة اكتشاف في الوجود، قمنا بعملية التنقيب وراء مسارها المعرفي؛ لنرصد أثار هذه المقولات واستقرائها من خلال المسار المعرفي ومراحله العلمية عند "حي بن يقظان"، من أجل أن نقيس بالمقولات تلك، مظاهر التجربة اليقظانية من حيث إدراكها للذات والكون معا فالتجربة الإنسانية" كيان منظم من خلال مقولات ثلاث: هي الأصل والمنطلق في إدراك الكون وإدراك الذات وإنتاج المعرفة وتداولها ". 3

كانت سمة المنطق، القاعدة الأساسية للتفكير اليقظاني وحصوله على دلالة الأشياء؛ من حيث انتقاله المعرفي من مرحلة إلى أخرى عبر توثيق الترابط؛ من التمثيل والقياس والاستقراء منذ مرحلة اللاتمييز مرورا بمرحلة التمييز وصولا لمرحلة إصدار الحكم .

هي مراحل ثلاث أساسية، نستقرئ من خلالها خطة النشاط اليقظاني وكيفية إحداثه للأثر في العالم المعيش، إذ إنّ الإنسان في حد ذاته، علامة يشتغل على ذاته ومن حوله " فالعلم لا يفكر على حد تعبير "هيدجر" ... إذ إنّ بنية العلم تعتمد على قاعدة الذات الثابتة؛ والتي تضمن ثبات الحقائق والتصورات والاستنتاجات، وعلى هذا أيضا تبني نظرية المعرفة وضعها في تقدير وتفعيل نشاط الذات ... ووضع الذات، هو حقيقة تعطى بذاتها ... إنها في الوقت نفسه، وضع للكينونة وللفعل معا، ووضع لوجود عملية التفكير ".4

هذا بالذات ما سنسعى لاكتشافه؛ من خلال وصف المسار المعرفي لدى"حي" واكتشاف بنيته ووظيفته الدينامية؛ من حيث الفعل وعملية التفكير بين كينونة الذات والعالم.

قدّم "بورس" تصوره من خلال خطاطة ثلاثية، يمكن بواسطتها الكشف عن مجمل مكونات التجربة الإنسانية، وهذه الخطاطة تكمن في مقولات الفكر؛ باعتبارها الرابط الأساسي الذي يوحّد بين مكونات التجربة الإنسانية وأشكال الوجود ،"فمبدأ الثلاثية؛ "هو المبدأ الأساسي الذي سيشكل عمق السيرورة المنتجة للإدراك والفهم والتواصل الإنساني".5

إننا سنستند إلى آلية إجرائية لحصر بنية الفكر اليقظاني؛ عبر المقولات التي تعتبر أداة منطقية فعالة لتصنيف ظواهر الوجود، وإقامة سلسلة من العلاقات، والمقولات هذه ما يسميها "بورس" بالفانروسكوبيا التي تعني " وصف الظواهر، ومعنى ذلك الكلية الجمعية لكل ما هو حاضر عند الذهن؛ بطريقة ما وبأي معنى كان، دون اعتبار أبدا ما إذا كان هذا يناسب امرا واقعيا أو لا يناسبه ... وهي الدراسة التي تعتمد على الملاحظة المباشرة للمظاهر ."6

وكما بيّنا سابقا، أن منطلق المعرفة لدى "حي" كان حدسيا بين الافتراض والاحتمال المبهم؛ ليمر بعد ذلك إلى واقع الموضوع المعطى عبر التجربة وتجسيد الفعل؛ ليصل أخيرا لرابط معرفي وعلمي وثيق يجمع بين الاحتمال والتجسيد ليكوّن حكما منطقيا، يردّ مجموع التصورات والاحتمالات إلى وحدة منطقية وعلى هذا الأساس سيتبين لنا أن خطاطة النشاط الفكري عنده مبني على مراحل ثلاث وهي: الإمكان ولحظة التجسيد وصولا للحظة البرهان؛ وهذه هي المراتب الثلاث الأساسية في الوجود، و"حي بن يقظان" كائن انطلق من العدم والمبهم، إلى الواقع وتجلّي الوضوح، بعد انغماسه داخل شبكة من أنساق العلامات التي تقوم بتوجيهه.

ومن أجل اكتشاف النسق الفكري اليقظاني، علينا استقراء المراحل الثلاث، وتحديد ما يحصر في العيان، وما يحضر في الأذهان، وما يتجلى من خلال البرهان.

1- مرحلة الإمكان :

هي إحدى الوضعيات البدئية، التي تنطلق منها التجربة الإنسانية، انطلاقا من مهد العلامات؛ إذ تسمى هذه المرحلة في الفكر البورسي بالأولانية؛ ويعني بها " كيفيات الإحساس والمظاهر المحضة ... وهي بالتعريف حال الوجود الذي يرتكز على أن شيئا ما ايجابيا كما هو دون اعتبار لأي شيء آخر .. والأول؛ يتوجب أن يكون حاضرا ومباشرا وأن يكون بدئيا، وأصيلا، وتلقائيا ، وحرا ... ويمكن تشبيهه بالعالم بالنسبة لآدم حين فتح عينيه لأول مرة، قبل أن يصبح قادرا على التمييز، وعلى الوعي بكينونته وبوجوده الذاتي ".7

أليس هذا ما حدث بالذات مع "حي" في لحظة وجوده في الغابة، منعزلا عن العالم الإنساني؟ إنها بالتأكيد لحظة اللاتمييز واللاوعي، التي انطلق منها لإقامة علاقة مع عالم الموجودات؛ وسنجد هذا متجسدا في وصف "ابن طفيل"؛ لمرحلة المحاكاة الأولية القائمة على الانفعال، وذلك دون أي تمييز؛ وعليه فالمرحلة الأولانية، تشتمل على كيفيات الظواهر والأحاسيس، التي تبدو متنوعة وغامضة، ومن بين هذه الكيفيات والإحساسات مثلا: الروائح والأصوات والانفعالات ؛ فـ"حي بن يقظان" انطلق من مرحلة اللاتمييز القائمة على الفكر الحسي؛ من خلال المحاكاة والاستماع للحس الصوتي والانفعالي.

إذن، المحاكاة هي نوع من الفكر الأولي، هي كيفية حسية لا تمييز لها ، هي ظاهرة منعزلة عن التحقيق وعن أي تبرير؛ بالدليل أنها حالة تصف لنا مرحلة التآلف، الذي يجمع بين الحيوان والإنسان، دون أي تمييز لكينونة الذات.

فالمرحلة الأولانية، تكتنفها الأحاسيس وهي" نوع من الوعي، الذي لا يستدعي أي تحليل، ولا يستدعي أي مقارنة، ولا أية سيرورة، ولا يرتكز لا كليا، ولا جزئيا، على فعل يتميز من خلاله؛ حقل وعي من حقل آخر، فعل له كيفيته الإيجابية المكتفية بذاتها ".8

هذه كانت، زاوية النظر البدئية للأشياء عند "حي بن يقظان"، إذ أنه ينشغل بالشيء في ذاته كما يبدو له، دون أن يعير انتباها للترابطات، إذ أنّ الأولانية " تتميز بالعمومية، ولهذا فان الإبهام

والغموض والالتباس سمات خاصة بها ... فهي توجد خارج أي تحديد ... إنها الاحتمال؛ والاحتمال نمط في الوجود لا يربط بحالة ولا يعود إلى واقعة".9

وبالفعل كانت سمة الإبهام والغموض ترافق "حي" في مساره المعرفي مع كل انطلاقة معرفية أولية منذ كثرة المظاهر، وتعدد الاحتمالات، بتعقّد التصورات بعيدا عن التجلّي والتعليل؛ يستند بذلك لآلية الملاحظة المباشرة، ووصف الظاهرة كما تبدو له في ذاتها، وحتى في حضور عملية المقارنة، بينه وسائر الحيوانات، كانت الحالة مجرد إمكان كيفي وحسي، دون أي تعليل، أو تصنيف، إذ إنّ مرحلة المقارنة وهي نوع من الإمكان قائم على الوصف المباشر للظاهرة كما هي، وكما تبدو له، من خلال آلية الملاحظة المباشرة؛ لكن رغم اكتشاف وجود الظاهرة وملاحظتها، تبقى مجرد موضوع مبهم؛ لافتقاره لأي تعليل إذ كان " يفكّر في كل ذلك، ولا يدري ما سببه".10

بالتالي تتجسد مرحلة الإمكان عند "حي بن يقظان"، من خلال وصف الظاهرة كما هي؛ اعتمادا على الملاحظة العامة، دون البحث في السبب، وتعليل الوجود الظاهراتي؛ لذلك تبقى معرفته الأولى هشّة ما لم تنزل ميدان الممارسة والتجريب، وتجسيد فعل التفكير، ولن تكتمل مرحلة الأولانية، ما لم ترتبط بالثانيانية؛ إذ أن" الأولانية توجد في راهنية وجود الشيء، دون الإحالة على موجود ثاني"،11 بمعنى أن ندرج وجود الشيء في ذاته كما هو معطى، دون ربطه بأي سياق، وبعيدا عن أي تصنيف وتحليل؛ بل هو الاكتفاء بالوصف، والملاحظة المباشرة.

بعدها ينتقل "حيّ" من مرحلة الاحتمال والإحساس إلى مرحلة التحقّق وفعل الممارسة عن طريق التجربة، ليتمكن من رد مجموع الافتراضات والتصورات إلى وحدة عبر آلية التركيب، وبالتالي ينتقل إلى مرحلة ثانية في التفكير.

2- مرحلة التجسيد:

هي أساس الفكر الإنساني، وبداية تلاشي الغموض، لجلاء الظاهرة وتبيان أثرها في الحياة فالثانيانية هي" انتقال من واقع اللاتحديد، إلى الوجود العيني المحدد، من خلال وقائع ... هي نمط وجود الشيء كما هو، في علاقته بثان دونما اعتبار لثالث، إنها تعيين وجود الواقعة الفردية ".12

إن المرحلة الثانية، هي مقولة الوجود الفعلي المتجسد عبر آلية التجربة؛ فمن خلالها تمكن "حي بن يقظان" بالانتقال من الإمكان إلى التحقق، وولوج عالم الوجود وكنهه، من خلال صب المعطيات الموصوفة الأولى داخل وقائع محددة، بعد أن كانت متقوقعة بين الكثرة واللاتحديد، انتقلت إلى طابع التحقيق بفعل التحديد ، وأبرز مثال يجمع الإمكان وحالة التجسيد هي المرحلة الحاسمة في فكر "حي بن يقظان" في اكتشاف سر الحياة وإتقان عملية التشريح ؛ إذ يعدّ موت الظبية حافزا فكريا ساعده في الارتقاء المعرفي وتحديد إحساساته عبر طريقة علمية في التفكير.

فظاهرة موت الظبية هي صورة حاضرة أمام "حي"، وبالتالي تجسدت في الذهن كمرحلة إمكان يكتنفها الغموض والإبهام، فينطلق في إدراك هذه الظاهرة بملاحظة دقيقة لأعضاء الظبية "... فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة ... وقع في خاطره أن الآفة التي نزلت بها أنما هي عضو غائب عن العيان مستكن في باطن الجسد."13

بالتالي لاحظ غياب السبب الذي جعل الظبية تموت بعد تفتيش أعضائها وملامستها، شرع في البحث عن سبب الآفة من خلال آلية الافتراض والشك، في تحديد الظاهرة، ومكان الآفة، وانتهى إلى أول استنتاج افتراضي يحدد موطن العلة، وهو الصدر عبر آلية المقارنة بين جسده وجسد الظبية؛ إذ أنّ هذه المرحلة، تشمل كل من الملاحظة والوصف؛ وبين الاحتمال والافتراض يتبقى تحديد الظاهرة هشا، وناقصا ؛لأن موضع الآفة، وسبب الموت، هو مجرد افتراض، ما لم يتحدد ويتثبت عن طريق التجربة، فهل ينزل "حيّ" بافتراضه العقلي إلى ميدان التجربة ؟

بلا شك سينتقل "حي" بفكره المجرد إلى مرحلة التطبيق، في عملية شق صدر الظبية، حيث أنّه ينطلق من مرحلة الإمكان، استنادا للملاحظة الدقيقة، والوصف السليم والمباشر للظاهرة المعطاة أمامه، كما هو الشأن، في وصفه لصورة القلب، بعد شق الصدر، إذ أن الوصف يرتكز أساسا على مبدأ التبسيط الصوري، والشكلي لكلية الظاهرة، بعيدا عن مكوناتها، وتحديد عناصرها، فالوصف يبسط تكهنات "حي" من أجل تسهيل ميدان التجربة؛ إذ بدقة الوصف لوضعية القلب، وتوسطه للمكان حكم بأن ذلك العضو هو مطلوبه، فحاول هتك حجابه .

إذن، بعدما كان تصور موضع الآفة، مجرد إمكان وتصور حسي، أصبح واقعة محددة بالفعل بعد ممارسة التجريب في شق الصدر، وهذه مرحلة تبين لنا انتقال "حي بن يقظان" من مرحلة الإمكان والإحساس، إلى مرحلة التجسيد والفعل، عبر الوصف والتجربة؛ فرغم فشله في إدراك سبب موت الظبية إلا أن ذلك لم يكن عائقا أمام مساره العلمي، ومغامرته المعرفية، إذ أنه بمحض الصدفة؛ يكتشف جزءا آخر من العالم، وهو رابط أساسي لفكرته السابقة، ونتيجة محضة لاكتشاف سر الحياة وكنه الموت ؛ وهي مرحلة اكتشاف النار، التي لعبت معها الصدفة دورا أساسيا في سيرورة الفكر اليقظاني، وهذا ما يجعل من فكره، يتسم بالتراتب والترابط الدينامي ، وفي هذا الشأن، يقول "بورس" [إذا ما افترضنا أن كل فكرة هي علامة، ينبغي على كل فكرة ،أن تقود بدورها إلى فكرة أخرى، وأن تحدد فكرة أخرى، طالما أنه كذلك، هو جوهر العلامة .]14

فالفكر في حد ذاته علامة، تشتغل بالترابط العلائقي، والتلازم الفكري، وهذا ما يجعل من الفكر دينامية متجددة، فمرحلة اكتشاف النار، تحمل في طياتها مرحلتي الإمكان والتجسيد معا؛ إذ تتمثل مرحلة الأولانية، في المشاهدة البصرية للظاهرة، ومن حيث الفعل الحسي القائم على الانفعال؛ بعدها تبدأ مرحلة التركيب، والربط بين الأول والثاني، بين اكتشاف موت الظبية، وعلاقتها بحرارة النار، هذه الظاهرة هي علامة بحد ذاتها، تستدعي علامة ثانية، للارتقاء بالمعرفة، وتجسيد الحقيقة.

أراد "حيّ" أن يحقق احتماله في وجود صلة قوية بين النار، والشيء المرتحل عن الظبية، وهذه مرحلة تبين لنا سعيه وراء توضيح العلل، والبحث عن الأسباب؛ أولا من خلال إقامة رابط

العلاقة وظاهرة النار؛ إذ من خلال عملية التجربة، تمكن من إدراك علاقة النار بموت الظبية؛ بالتالي اقترب افتراضه من التحديد والاستنتاج؛ بمعنى أن الشيء الذي كان يحرّك ذلك الحيوان، هو ذلك البخار الحار، فالحرارة مرتبطة بالجسم الحي .

فبعد عملية التركيب والتحليل، والربط بين الأول والثاني، ينتهي "حي بن يقظان" إلى نتيجة يقينية تدعّم مساره المعرفي ونموّه العقلي؛ إذ من خلالها يكتسب عادة في التصرف وهذا ما نجده متجسدا في مرحلته الفكرية الثالثة.

3- مرحلة البرهان:

هي إحدى مراحل تجسيد التنبؤ العلمي عبر اكتساب عادة التصرف التي من خلالها يتجلى وضوح الفكر وضرورته بإنشاء قانون ودلالة وجود الأشياء وآثارها في العالم، فالمقولة الثالثانية " هي مقولة الوعي المفكر فيه"15 بالتالي هي " الشرط الضروري لإنتاج القانون والضرورة والفكر والدلالة، فلا يمكن للأول أن يحيل على الثاني إلا من خلال وجود عنصر ثالث يربط بينهما، ويضعهما في علاقة، وعلى هذا الأساس فان الثالثانية هي مقولة التوسط بامتياز".16

إن عملية التوسط تجعل من العلاقة القائمة بين الأول والثاني اشتغالا قانونيا يندرج ضمن إطار العادة، والعادة آلية منطقية في التأويل تجعل من الذات الفاعلة منتجة للسلوك الذي يتحوّل بدوره إلى قاعدة تجعل منه عادة تشتغل كنموذج عام يحكم هذا السلوك.

فبعد مرحلة الوصف والتصنيف يصل "حيّ بن يقظان" إلى مرحلة حاسمة للفهم والتأويل في تحديد كنه الأشياء ووضع مفاهيم مخصصة للظواهر، وهذا ما يجعله يحدد نمطا تواصليا بينه وبين أشياء العالم من خلال تجسيده للفكرة والدلالة، إذ أن الثالثانية هي " الأصيلة أي تلك المقولة التي تكون ضمنها الوساطة واقعية بملموسيتها آو بموضوعيتها ... إنها الإجراء الذي يستطيع تجسيد الفكرة وإبلاغها إلى الذهن كشرط للتواصل".17

فالمرحلة الثالثة للفكر هي الدرجة الثالثة من الوضوح على حد تعبير (بورس)، وهي بذلك المرحلة الحاسمة لتحقيق الفهم وتفجير دلالة العلامة من خلال آلية الاستنتاج والاستقراء وحكم البرهان.

إن ما يمكن حوصلته من الفكر اليقظاني لهذه المرحلة أنها تتسم بالتعليل في البحث وراء المبررات بعد ما كان في مرحلة الإمكان ووصف الشيء، انتقل إلى ميدان الممارسة والتجريب بحثا عن مبدأ علة الأشياء وحدوثها، كما رأينا ذلك سابقا في المثال المميز لتجربة التشريح واكتشاف النار، حيث كان ذلك سعيا وراء اليقين، إذ أنه عقد مقارنة علمية وجدُّ عقلية بين النار وما كان قد ارتحل عن جسم أمه الظبية فلم يكن "حيّ بن يقظان" ليذهب إلى هذه المقارنة دون مبررات، بل كان لهذه المقارنة أساسا وهو ما كان يلاحظه من حرارة الحيوان مدة حياته وبرودته بعد موته، وكذلك ما كان يجده في نفسه بالذات من شدّة الحرارة عند صدره، أليس هذا نموذج للقياس العلمي من أجل البرهان على حقيقة الشيء؟

إنّها دعامة أساسية للتأكيد على القول العلمي وقيمته في خطاب "ابن طفيل" على إقامة البرهان المنطقي وصولا لليقين ولترسيخ الاعتقاد وتجسيد الوضوح الفكري .

بعد أن حقق "حيّ" فكرته في تحديد كنه الموت واستقراء ماهيتها، تابع مهمة التشريح بغية إدراك عملية التركيب العضوي في جسم الحيوان وهي بدورها مرحلة حاسمة في الفكر ينتقل من خلالها من الكثرة إلى تحقيق الوحدة لتجسيد عادة في التصرف، وتيسير دلالة الشيء بالبرهان المنطقي، فحين"تحركت في نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكميتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به، وكيفية بقاء هذا البخار المدة التي بقي، ومن أين استمد وكيف لا تنفذ حرارته؟ فتتبّع ذلك كلّه بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات، ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كلّه مبلغ كبار الطبيعيين"18.

يرتقي "حيّ بن يقظان" بفكره من خلال عملية التراتب والتدرّج المعرفي، انطلاقا من مبدأ الفرضية والاحتمال مرورا بالممارسة والتجربة وصولا لليقين المنطقي المجسّد بطريقة علمية، فمن

خلال عملية التشريح أدرك عملية الترابط العضلي الذي يجمع جسم الحيوان بعقد المقارنة بين كثرة الأجسام والأعضاء وما يربطها من علاقة عبر التمثيل والقياس، تمكن "حيّ" من تحقيق استنتاجه المعرفي في كون أن" كل شخص من أشخاص الحيوان، وإن كان كثيرا بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته، فانه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد "19، إنه بالفعل نموذج لتحقيق وحدة التصور في منطق البرهان رغم الاختلاف والتنوع.

تؤكد المرحلة الثالثة في الفكر اليقظاني درجة من الوضوح والتجلي الواقعي للتصورات الذهنية والافتراضات الحسية التي سعى "حيّ" لإثباتها عبر آليات للفهم والتأويل انطلاقا من مقدمات أولية أدرك صدقها استنادا لملكة الحدس والحدث والاستدلال؛ مما جعل من سيرورته المعرفية طريقا علميا مميزا بالاستدلال، والعلم هو معرفة بالضروري ومن حيث هو ضروري فهو لا يقبل إلا البرهان، وبذلك كان البرهان المعيار المميز لعلمية المعرفة اليقظانية.

إن البرهان نوع من الإثبات الفكري وخلاله جسّد "حيّ" تدرّجه المعرفي انطلاقا من الافتراض والاستنتاج الأولي القائم على القياس والمقارنة والتمثيل، من اجل إصدار حكم منطقي يبيّن علل حدوث الأشياء وأثر وجودها في الكون.

فكان للقياس وظيفة استدلالية واستكشافية حيث أنه أتاح لـ "حيّ" قياس المجهول على المعلوم، وهذا ما جعل من مساره المعرفي يتسم بالتلاحم الفكري والترابط العلمي عبر التمثيل للمعارف السابقة والخبرات التجريبية، ومن خلال التدرّج المعرفي والطريق العلمي بالاستنتاج العقلي أدرك وحدة الوجود بعد أن كان مجرد كثرة لا حصر ولا حدّ لها، إذ ينتشر له الوجود انتشارا لا يضبط على اختلاف أنواع موجوداته.

فبحكمة النظر وعقلية التأمل تيقّن "حيّ بن يقظان" بعالم الكون ووحدته حين أدرك قيمة العلاقة التي تربط كل ما رآه كثرة، واعتبرها في الحكم الواحد، وعليه أقام الدليل على حقيقة الذات ووحدة الروح .

كان التمثيل أحد المميزات الجوهرية للفكر اليقظاني، إذ نلاحظ فيه عمق النظر الذي يتجلى عند "حيّ" في اكتشاف التشابهات الخفية والمضمرة في علامات الوجود، ومن خلال ذلك تابع آلية التمثيل لصياغة نموذج عام يفهم عبره تركيب وحدوث جميع الظواهر المختلفة في العالم، إذ أن لكل شيء في الكون شيء مماثل، يحدث من جديد ويعود ويتكرر، وهذا ما يُنمي المعرفة لدى "حيّ" ويجعل منها سيرورة لا متناهية، فالتمثيل " نمط محدد من الفكر يتميز بإيقاع معقد في الانتقال من نسبة إلى نسبة مشابهة. "20

ستتجلّى لنا آلية التمثيل كأداة للاكتشاف والبرهان معا من خلال تتبّع مسار المقارنة التي لعبت دورا هاما في تكوين المعرفة عند "حيّ بن يقظان"، إذ أن هذه المقارنة اعتمدت على مقارنة الإنسان بالحيوان الحيوان بالنبات... وهي ثنائيات أساسية في الكون اعتمدها وسيلة لاستقراء حقيقة الوجود .

فمن خلال مقارنة النبات بالحيوان نستشف أن "حيّ بن يقظان" هو بصدد إحداث مقاربات دلالية تعدُّ المرحلة الثالثة من الفكر اليقظاني، إذ أنه كان يرتقي من العام إلى الخاص باستخلاص الخصائص المحددة للظاهرة، فكان يحيل على الجنس والنوع، ويلتمس الفروق، ويجزئ المسألة بعد أن تحقق من حقيقة الروح، فكان" يُحضر أنواع الحيوانات كلها في نفسه ويتأملها فيراها تتفق في أنها تحس، وتتغذّى، وتتحرّك بالإرادة إلى جهة شاءت، وكان قد علم أن هذه الأفعال هي أخصّ أفعال الروح الحيواني"21

فبعد هذا التأمل ظهر له " أن الروح الحيواني لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة "، ثم كان يرجع إلى أنواع النبات على اختلافها " فيرى كل نوع منها تشبه أشخاصه بعضها بعضا، في الأغصان والأوراق والزهر والثمر، والأفعال يقيسها بالحيوان، ويعلم أن لها شيئا واحدا فيه : هو لها بمنزلة الروح الحيواني وأنها بذلك الشيء واحد وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله في أنه يتغذّى وينمو.22"

بهذا الشكل جسّد "حيّ بن يقظان" مقاربته التمثيلية عبر آلية القياس، إذ أن التمثيل نوع من المقايسة في الفكر الإنساني، إذ تعني " المقايسة التناسب والعلاقة ... لها قدرة على تحقيق اللاممكن "23، فمن خلال المقارنة سعى إلى تبيان العلاقة وضبط حدودها بين الحيوان والنبات، وعبر حكمة النظر ودقة التأمل استخلص الخصائص المحددة لكل منهما، ويبقى يستفسر عن المشترك القائم في حدود الروح الحيواني والنباتي.

ينتقل "حيّ" إلى عملية التركيب والجمع بين العنصرين ليظفر بالتآلف وتيقّن العلاقة، إذ أنه " كان يجمع في نفسه جنس الحيوان والنبات، فيراهما جميعا متفقين في الاغتذاء والنمو، إلا أن الحيوان يزيد على النبات، بفضل الحس والإدراك والتحرك"24، أليس التمثيل نوع من الاستدلال؟ إن الاستدلال بالتمثيل يسمح بالولوج لجوهر الموضوع المعطى ليثبت خصائصه التي لا يمكن ملاحظتها بالعين المجردة.

فبالتمثيل والقياس استدلّ "حيّ" على حقيقة كل من الحيوان والنبات، إذ أًصبحت أداة التمثيل هنا " كأداة تفسيرية تسمح بالتصنيف والتعميم وبالوصول إلى قوانين"25، وعلى هذا الأساس تعتبر آلية التمثيل مبدءا تنظيميا لمنطق الفكر اليقظاني؛ من خلال تجسيده للمقاربة النسقية بين الحيوان والنبات وصولا للدلالة وتجلى الصورة كما هو واضح من خلال هذه الخطاطة :

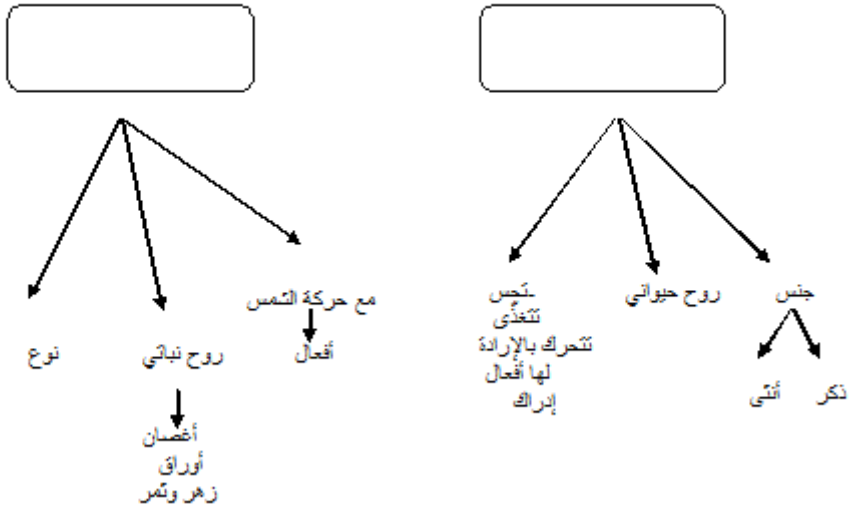

فمن خلال عملية الوصف والتحليل لاستخلاص مميزات الطرفين تمكن "حيّ بن يقظان" من تحديد الفروق والاتفاقات بينهما، كما هو مبين في الشكل التالي :

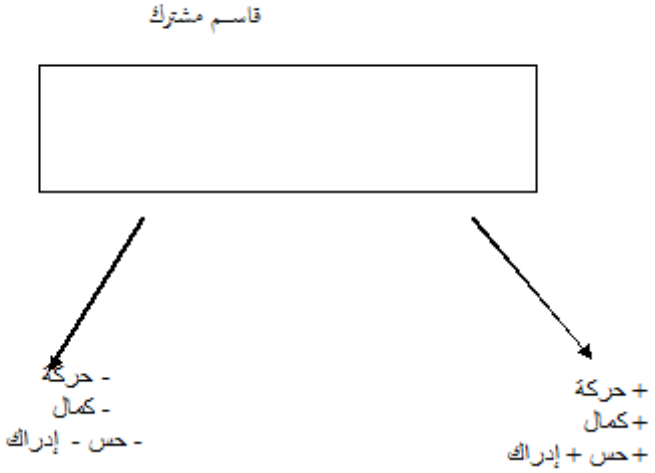

إن مقولتي النبات والحيوان ينتمي كل منهما إلى مجال دلالي خاص، ومع ذلك أدرك "حيّ" حدّ الاشتراك بينهما في الاغتذاء والنمو، وعليه استقرأ خاصيتهما وجعل بطريقته الفكرية منهجا للوضوح؛ من حيث أن الاستقراء " طريقة تكوين المفاهيم، ويتم ذلك ابتدءا من تصورات يقع تصحيحها وتمحيصها باستمرار ارتقاء إلى العام من أمور خاصة باستخلاص المشترك"26 ، وعن طرق الاستقراء والبرهان يرتقي "حيّ" بمعرفته ويلج ماهيات الأشياء .

إن الطريقة التمثيلية ساعدت "حيّ بن يقظان" على تكوين المفاهيم وتيقُّن العلائق التراتبية والمتدرّجة بتحليل المقاربات عبر آلية الملاحظة والوصف، والتحليل والتصنيف، والقياس والتركيب، حقق ما كان بالنسبة إليه مجرد إمكان وإحساس، أصبح واقعة من خلال حدث التجربة التي هي أحد مبادئ الفهم الخالص، والتجربة ليست ممكنة إلا بتمثيل رابطة ضرورية بين التصورات والمدركات الحسية وصولا لإصدار الحكم، وإقامة الدليل في تحديد كنه الشيء، وتكوين مفاهيم منطقية، فالتحليل بالمقاربات يعدّ كشفا جديدا للعالم ولكينونة الذات، وعلى نفس النهج المعرفي اتبع "حيّ بن يقظان" مساره المعرفي في إدراك حقيقة الروح، وماهية الجسم والعالم وصولا لإدراك علة حدوث العالم و موجوداته، في إدراك وحدة الوجود، وواجب الوجود بقوة من النظر العقلي .

إنّ إستراتجية الفكر اليقظاني مدعمة بآليات للفهم والتأويل، مما جعل بنيته ثلاثية تشتغل كعلامة باعتبار فعل الإدراك والممارسة التي جعلت من مسار "حيّ" بن يقظان" المعرفي سيميوزيسا يتسم بالمنطق العقلي وكأنه انتهج طريقة سيميائية من حيث العمليات الإدراكية التي تقود الإنسان إلى تحقيق تخميناته الفكرية وتجسيدها في وقائع حقيقية الدلالة.

نبيّن بنية الفكر اليقظاني للمسار المعرفي، عبر رسم خطاطة نشاطه الحدثي في اكتشاف أثر علامات الوجود.

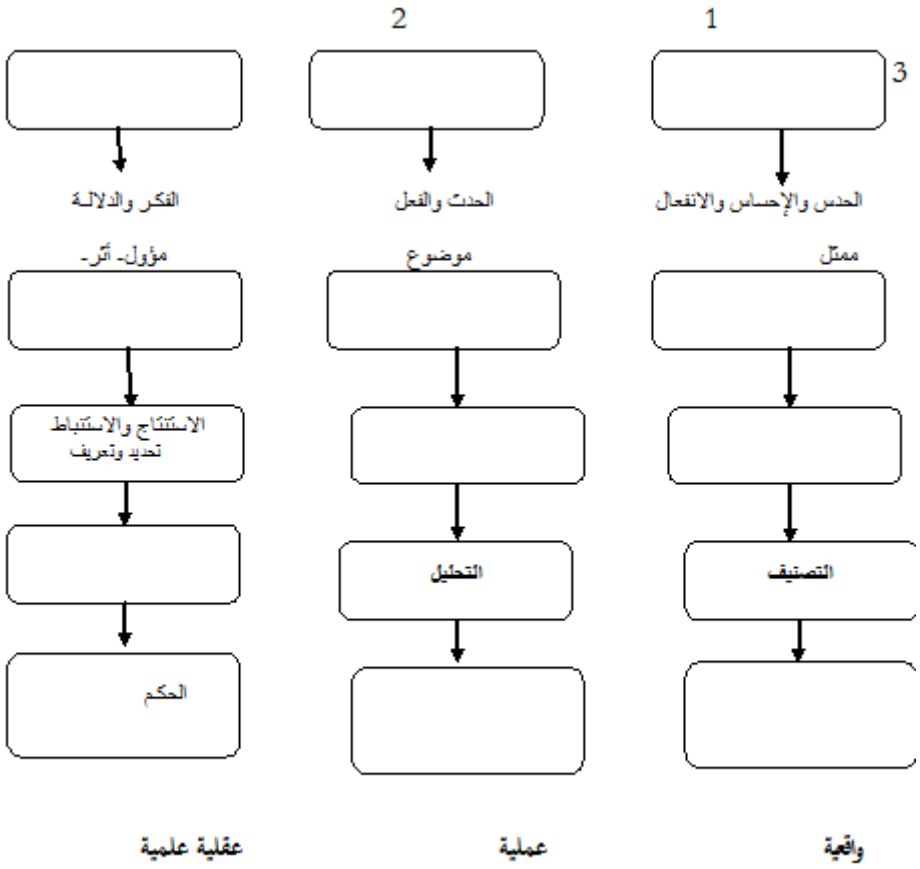

– مرحلة اشتغال الفكر

على هذا المنحى تمكن "حيّ بن يقظان" من تجسيد اصطلاح مفاهيمي للأشياء بتوظيف الوصف والتحليل والاستقراء والجمع بين المشابهات، حيث تدرّج بأشياء العالم ومعرفتها بدءا من كونها إمكانا إلى أن تجسّدت واقعة، من خلال قانون الربط لتحقيق أثر الموضوع في الواقع، وتجسيد دلالته؛ وبالتالي يتبيّن لنا في الأخير أنّ "حيّ بن يقظان" استند إلى نظرية سيميائية في المعرفة من حيث سيميوزيس الفعل الذي قدّم له تصورا متكاملا للعالم، وعليه تمكن من خلق سيرورة ذهنية للإدراك

من خلال إنشاء نسق بين مميزات الأشياء، ومحاولته لاستحضار تجاربه السابقة والربط فيما بينها، ما جعله يشكّل حقلا إدراكيا ممكنا من خلال تحديد عملياته الحدسية بالتجربة والاستنتاج، فهو لم يتوقف عن اكتشاف الأشياء واتساع معرفته مما جعل معرفته فعلا ديناميا يؤسس معرفة تستدعي نشاطا حيويا يقوم بملأ الفراغات وإعطاء معنى للأشياء، وعليه فهم "حيّ بن يقظان" فحوى وجود الكون كعلامة، بأبعادها الأنطولوجية والتصنيفية والاستكشافية بالتدرج عبر مراحل ثلاث من الإمكان إلى الفعل إلى البرهان.

هوامش البحث:

1. سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمان، الرباط، 2003، ص18.
2. Claudine Tiercelin;C .S.Peirce et le pragmatisme ,1er Edition ;presses universitaires de France ;Paris, Puf,1993.p 13
3. 1سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات ش.س.بورس، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2005،ص 41
4. 4-عمارة ناصر، اللغة والتأويل، مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر،2007 ،ص 13
5. سعيد بنكراد، م.س، ص 42 .
6. طائع الحداوي، سيميائيات التأويل، الإنتاج ومنطق الدلائل،الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، 2006.، ص 254 .
7. م.ن ، ص 256، 257 .
8. م.س، ص 258 .
9. سعيد بنكراد،السيميائيات والتأويل ، ص 56 ، 57 .
10. ابن طفيل ،ص1.7
11. جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمن بوعلي ، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،2000، ص56 .
12. سعيد بنكراد، م.س، ص 61 .
13. ابن طفيل، رسالة حي بن يقظان، ص 8 .
14. عبد القادر فهيم الشيباني، معالم السيميائيات العامة، أسسها ومفاهيمها ، الطبعة الأولى، سيدي بلعباس، الجزائر، 2008، ص78 .
15. جيرار دولودال، م.س، ص 56 .
16. سعيد بنكراد، م.س، ص 67 .
17. عبد القادر فهيم الشيباني، م.س، ص 83 .
18. ابن طفيل ، ص 13 .
19. م.ن،ص.ن.

20. د. الطاهر وعزيز، المناهج الفلسفية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1990، ص 51.

21. ابن طفيل، ص 15 .

22. ابن طفيل، م.س،ص15.

23. د.محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البضاء، المغرب، 1994،ص 102 .

24. ابن طفيل، م.س، ص 16 .

25. د. الطاهر وعزيز، م.س، ص 58 .

26. الطاهر وعزيز، م.س، ص 63 .